

الصدقة وتنمية الأخلاق الفاضلة



إنّ ما نؤمن به من قيم العدل، والإنصاف، والتعاون، والتواضع، والإخلاص، علينا أن نترجمه إلى واقع عملي من خلال علاقتنا بالناس، ولا يتحقق ذلك إلّا إذا كان لنا أكبر عدد ممكن من الأصدقاء.

من هنا فإن الحديث عن الأخلاق لا ينفصل عن الحديث عن الصدقة والأصدقاء، والعكس صحيح أيضًا.

ولطالما شكّلت "أخلاقيات الصدقة"، جوهر التعامل بين الناس، والأرضية التي بنيت عليها حيّاتهم، ولو لاها لم يكن ممكناً، على الإطلاق، أن تدوم مدنية، أو تقوم حضارة.

وصدق الشاعر الذي قال:

وإذْمَّا أَمُّ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيتُْ *** فَإِنْ هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

إن "المذيع" الصغير الذي تشتريه من أصغر متجر في العالم، وراء اختراعه وصناعته "أرضية أخلاقية"؛ وهي نفسها التي كانت وراء الحضارة القائمة كلّها. فلو لا مبدأ التعاون والمشاركة الذي جعل ألوان الأيدي تتعاون فيما بينها لصناعته، لما كان بمقدورك أن تحصل عليه بهذه السهولة.

ونحناليوم نحصل على ما أنتجه الإنسان من المخترعات، والصناعات المختلفة التي جاءت كثمرة لمبدأ التعاون والمشاركة لدى القائمين عليها.

هذا المبدأ الذي حول جهود الأفراد إلى أنشطة جماعية، أوجد مبدأ التكافل الاجتماعي، وتساوي الفرص، واحترام الشخصية الإنسانية، وحقوق الملكية.

وحيثما تنهى الأسس الأخلاقية في التعامل بين الأفراد في مجتمع ما، فإنه سيسير عاجلاً أو آجلاً، نحو الهاوية، وسيعاني من أزمات ليست لها نهاية، لأن سوء الأخلاق علة أساسية لسوء التصرف.

يقول رسول الله (ص): "أبى اهـ لصاحب البدعة بالتوبـة، وأبى اهـ لصاحب الخلق السيئ بالتوبـة".

فقيـل: يا رسول الله، وكيف ذلك؟

قال: أمـا صاحب البدعة فقد أشرب قلبه حـباً، وأمـا صاحب الخلق السيئ فإنه إن تاب من ذنب وقع في ذنب أعظم من الذنب الذي تاب منه.

وكما يصدق ذلك بحقـ الأفراد، يصدق أيضاً على الجمـاعات. فالمجتمع السيئ الأخـلاقـ هو مجـتمع مـحكـومـ بالفشلـ. أمـا المجتمعـ الملـزمـ بالأخـلاقـ الحـسنةـ، فيـ شـؤـونـهـ الـاجـتمـاعـيـةـ والـسيـاسـيـةـ، فهو مجـتمعـ سـليمـ.

يقول رسول الله (ص): "أكـثرـ ماـ تـلـجـ بـهـ أـمـتيـ الـجـنـةـ:ـ تـقـوـيـ اهـ،ـ وـحـسـنـ الـخـلـقـ".

ويقول الإمام أبو عبد الله الصادق (ع): "البرـ وـحـسـنـ الـخـلـقـ يـعـمـ رـانـ الـدـيـارـ وـيـزـيدـانـ فـيـ الـأـعـمـارـ".

فـماـ هـوـ الفـارـقـ الـأـسـاسـيـ الـذـيـ يـمـيـزـ الـبـشـرـ عـنـ قـاطـنـيـ الـغـابـاتـ؟ـ أـلـيـسـ الـأـخـلـقـ؟ـ!

أـلـاـ يـعـيـشـ قـاطـنـوـ الـغـابـاتـ عـلـىـ الـأـنـانـيـةـ،ـ وـحـبـ الـذـاتـ،ـ وـالـمـصـلـحةـ الـشـخـصـيـةـ،ـ بـيـنـمـاـ الـبـشـرـ يـعـيـشـونـ عـلـىـ أـسـاسـ الـتـعـاـونـ،ـ وـالـثـقـةـ،ـ وـالـتـفـانـيـ،ـ وـالـعـطـاءـ؟ـ

لقد جاء الأنبياء (ص) بـشـرـائـعـ تـهـدـيـنـ إـلـىـ تـهـذـيـبـ أـخـلـقـ النـاسـ،ـ وـهـذـاـ مـاـ يـمـيـزـهـاـ عـنـ الشـرـائـعـ الـتـيـ يـهـمـهـاـ بـنـاءـ الـمـدـنـ،ـ لـاـ بـنـاءـ الـأـفـرـادـ،ـ وـاـخـتـرـاعـ الـوـسـائـلـ،ـ لـاـ تـهـذـيـبـ الـنـفـوسـ.

وـإـذـاـ كـانـ هـنـاكـ اـخـتـلـافـ مـاـ بـيـنـ شـرـائـعـ الـأـنـبـيـاءـ،ـ فـلـأـنـ كـلـ "ـنـبـيـ"ـ كـانـ يـُـبـعـثـ لـعـلـاجـ حـالـةـ أـخـلـقـيـةـ مـعـيـنـةـ،ـ فـالـنـبـيـ "ـلـوـطـ"ـ (عـ)ـ مـثـلـاـ بـعـثـ إـلـىـ قـوـمـ عـَـصـفـ بـهـمـ الشـذـوذـ الـجـنـسـيـ.ـ وـالـنـبـيـ "ـمـوـسـىـ"ـ (عـ)ـ بـعـثـ إـلـىـ قـوـمـ اـعـتـادـواـ الـخـضـوعـ لـلـطـالـمـينـ.ـ وـالـنـبـيـ "ـعـيـسـىـ"ـ (عـ)ـ بـعـثـ إـلـىـ قـوـمـ اـرـتـضـواـ عـبـادـةـ الـمـادـةـ،ـ وـحـبـ الـشـهـوـاتـ.

أمـاـ رـسـولـ اهـ (صـ)ـ فـقـدـ جـاءـ لـتـكـمـيلـ كـلـ الـأـخـلـقـيـاتـ الـتـيـ جـاءـ بـهـ الـأـنـبـيـاءـ جـمـيعـاـ،ـ كـمـاـ يـقـولـ (صـ):ـ "ـإـنـمـاـ بـعـثـتـ لـأـتـمـ مـكـارـمـ الـأـخـلـقـ".ـ

فـاـلـخـلـقـ الـفـاضـلـةـ هـيـ أـرـضـيـةـ كـلـ خـيرـ،ـ وـلـذـلـكـ فـقـدـ قـالـ رـسـولـ اهـ (صـ):ـ "ـحـسـنـ الـخـلـقـ خـلـقـ اهـ الـأـعـظـمـ".ـ

وـقـالـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ (عـ):ـ (ـحـسـنـ الـأـخـلـقـ بـرـهـانـ كـرـامـ الـأـعـرـاقـ).ـ

وـمـنـ هـنـاـ كـانـ "ـالـإـلـاـحـ الـأـخـلـقـيـ"ـ هـدـفـاـ أـسـاسـيـاـ مـنـ أـهـدـافـ الـعـبـادـاتـ.ـ فـالـصـلـاةـ فـريـضـةـ تـنـهـىـ عـنـ الـفـحـشـاءـ وـالـمـنـكـرـ،ـ بـيـنـمـاـ فـرـضـ الـصـومـ،ـ مـنـ أـجـلـ مـخـافـةـ اهـ تـعـالـىـ فـيـ أـمـورـ الـحـيـاةـ.

لقد قـيلـ لـرـسـولـ اهـ (صـ)ـ إـنـ "ـفـلـانـةـ تـصـومـ الـنـهـارـ وـتـقـومـ الـلـلـيـلـ،ـ وـهـيـ سـيـئـةـ الـخـلـقـ تـؤـذـيـ جـيـرـاـنـهـاـ بـلـسـانـهـاـ.ـ فـقـالـ:ـ لـاـ خـيرـ فـيـهـاـ،ـ هـيـ مـنـ أـهـلـ الـنـارـ".ـ

فـالـصـلـاةـ الـتـيـ لـاـ تـُـصـلـحـ عـلـقـةـ الـإـنـسـانـ بـجـيـرـاـنـهـ،ـ هـيـ صـلـاةـ فـارـغـةـ مـنـ روـحـهـاـ.ـ وـكـذـلـكـ الـصـومـ الـذـيـ لـاـ يـؤـدـيـ

إلى إصلاح ذات البين فهو مجرد لا أكثر، والحج الذي لا يؤدي إلى التعامل الأخوي مع الناس له وَعَبْدُهُ وَبِلَا فائدة.

يقول الإمام علي (ع) : (كم من صائم، ليس له من صومه إلا الظلماء، وكم من قائم ليس له من فيامه إلا السهر والعناة)."

ويقول (ع) : (حسن الأخلاق يُدرِّس الأرزاق ويُونِسُ الرِّفاقت).

كما يقول (ع) أيضاً : (حسن الخلق أحد العطاءين). ▶

المصدر: كتاب كيف تكوّن صداقات ناجحة